الفصل الرابع

obeikandl.com

obeikandl.com

نبحث في الموقف من بني أمية -جملةً- من باب التدرج مع الخصم، وإلا فإن المسؤولية الفردية هي قاعدة الجزاء في الإسلام -قضاءً وديانة- ﴿**ولاتزر وازرة وزر أخرى**﴾[فاطر: ١٨].

وواقعياً، يتعذر الحكم عليهم دفعة واحدة -على طريقة الموتورين-، وفيهم من أهل السابقة إلى الإسلام واحد كعثمان ابن عفان، هاجر إلى اللَّه، وناصر الإسلام، وزوجه النبي ﷺ اثنتين من بناته واحدة بعد الأخرى.. وفيهم من أهل العناد شخص كأبي سفيان تأخر إسلامه كثيراً، في حين أمضى معظم سنوات الدعوة على رأس أعدائها المشركين...

ومن بني أمية عمر بن عبد العزيز، الذي أجمع أهل القبلة -بل وكثير من غير المسلمين -على عدله، حتى أطلق عليه لقب «خامس الخلفاء الراشدين»، ومنهم فاجر متهتك كالوليد بن يزيد بن عبد الملك...

ومن بني أمية يزيد بن أبي سفيان الصحابي الذي ولاه أبو بكر الصديق قيادة أحد الجيوش الأربعة التي وجهها إلى فتح الشام، وولاه الفاروق -الخبير بالرجال- دمشق بعد أن مَنَّ اللَّه

على المسلمين بفتحها في عهد عمر . . . وكان في بني أمية قوم صالحون ماتوا قبل الفتنة[1] ، لكن الحاقدين الذين يرون بعيون أهوائهم لم يسلم منهم أبو بكر وعمر، وهما فوق جميع بني أمية بتاريخهما المجيد في خدمة الإسلام، وبما في سجلهما من أوسمة وتزكيات نبوية لم ينلها سواهما . . فكيف ينجو بنو أمية الذين ماتوا قبل الفتنة؟!

والنبي ﷺ استعمل عدداً من بني أمية أكثر من سواهم، فقد ولى عتاب بن أسيد على مكة بعد الفتح، وخالد بن سعيد بن أبي العاص وأخويه أباناً وسعيداً، كما استعمل أبا سفيان -أو ابنه يزيد- على نجران[2] .

وبعد وفاة النبي ﷺ ، ذرت فتنة الردة قرنها، فكانت فرصة ذهبية لبني أمية لينقضوا على الدولة الإسلامية بعد أن تكالب الكل عليها -لو كان بنو أمية كلهم أو معظمهم كفرة أو منافقين كما يزعم المفترون- . . غير أن ما جرى هو نقيض ذلك تماماً، فكثير منهم قد أبلوا بلاء حسناً في قتال المرتدين ومانعي الزكاة

(١) منهاج السنة، مرجع سابق، ٢/ ١٨٢ .
(٢) المرجع السابق، ٢/ ١٨٢ .

وفتوح الشام[1] .

فالحق -إذاً- ألا نزكي بني أمية بقضهم وقضيضهم، وألا نقذفهم قاطبة باتهامات لا يسندها دليل . .

شـــهادة ضمنيـــة...

إن القارىء الكريم في غنى عن التذكير بما ورد آنفاً، من أنه لا مجال للمقارنة بين علي -رضي اللَّه عنه- ومعاوية . . غير أن تلك مسألة، واتهام معاوية بالنفاق مسألة أخرى . . . فلو افترضنا -جدلاً- أنه ليس صحابياً، فإن الأصل في المسلم ظاهره، وأما السرائر فهي اختصاص إلهي صرف . . . ومهما وقع المسلم في ذنوب- دون الشرك- فإنه في مشيئة اللَّه : إن شاء غفر له رحمة وفضلاً، وإن شاء عذبه حقاً وعدلاً :

﴿إن اللَّه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[النساء : ٤٨] .

وإذا كان خاتم الأنبياء والرسل ﷺ لم يعلم المنافقين بأعيانهم

---

(١) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، سؤال في يزيد بن معاوية، تحقيق: صلاح الدين المنجد، ط٢، دار الكتاب الجديد/ بيروت، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، ص ٩، ١٠ .
وانظر : -حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، ١/ ٢٧٧ .

إلا بالوحي من اللَّه، فكيف يجترئ عاقل على توزيع الاتهامات بالنفاق جزافاً؟!.. أليس ذلك تألياً على اللَّه؟!.

وبالعودة إلى حذيفة بن اليمان -صاحب سر رسول اللَّه ﷺ- يطرح السؤال نفسه: هل كان حذيفة ليسكت على تولية منافق يعلمه يقيناً؟ فلقد ولي معاوية في عهد عمر بن الخطاب -رضي اللَّه عنه-، وحذيفة توفي في مطلع عهد علي -رضي اللَّه عنه-!!.

أليس الساكت عن الحق شيطاناً أخرس؟... إننا نربأ بحذيفة أن يغضي عن مسألة بهذه الخطورة، لا سيما أنه كان يمتاز بالجرأة والصدع بكلمة الحق دون مواربة...

ذلكم ما يقتضيه المنطق الفطري الجلي، فكيف إذا انضمت إليه واقعة عملية تؤيده؟!. تقول الواقعة: لما بويع علي -رضي اللَّه عنه- كان حذيفة عليلاً بالكوفة، فدعا الناس إلى المسجد وصعد المنبر فحمد اللَّه وأثنى عليه، ثم أوصى الحاضرين بنصرة علي ومؤازرته لأنه على الحق أولاً وآخراً. ولأنه -عنده- خير من مضى بعد النبي ﷺ إلى يوم القيامة، وأمر ولديه صفواناً وسعداً أن يكونا مع علي، فستكون له حروب كثيرة، وهو على الحق، ومن خالفه على الباطل..

وتوفي حذيفة بعد ذلك اليوم بسبعة أيام، وقيل: بأربعين يوماً[1].

والسؤال هو: لِمَ وصف حذيفة من سيخالف علياً بأنه على الباطل، ولَمْ يصفه بالنفاق لو كان يعلم أنه منافق؟!..

الفئة الباغية!!

يضاف إلى ذلك أن معاوية وعسكره الذين قاتلوا علي بن أبي طالب في صفين، موصوفون بـ«الفئة الباغية» في حديث صحيح، له في صحيح مسلم أكثر من رواية، فضلاً عن الترمذي والطبراني..

فقد روى مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول اللَّه ﷺ قال: لعمار بن ياسر -رضي اللَّه عنه-: «تقتلك فئة باغية»[2]، وفي رواية عن أم سلمة مرفوعاً: «تقتلك الفئة الباغية»[3]..

والفئة الباغية لا تخرج من دائرة الإيمان، بدليل قوله

---

(١) المسعودي، علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة دار المعرفة/ بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ٢/ ٣٩٤.

(٢) صحيح مسلم، مرجع سابق، ٥/ ٣٥٨، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: علامات قيام الساعة، الحديث رقم ٢٩١٥.

(٣) المرجع السابق، ٥/ ٢٥٩، الحديث رقم ٢٩١٦.

-تعالى-: ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر اللَّه فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن اللَّه يحب المقسطين * إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا اللَّه لعلكم ترحمون**﴾[الحجرات: ٩-١٠].

فالبغي مرفوض شرعاً، لكنه لا يُخْرِجُ الباغين من دائرة الإيمان، وإذا وصفهم اللَّه بأنهم مؤمنون، فإن من يصفهم بالكفر أو النفاق متطاول يتألى على اللَّه -عز وجل-.

حسنات معاوية

عند النظر إلى معاوية بمنظار تاريخي محايد، يتضح أنه -ماعدا قتاله علياً وتحويله نظام الحكم من خلافة إلى ملك- شخص ذو مآثر. فهو أحد كُتَّاب الوحي[1]، وقاتل في حنين مع النبي ﷺ، ثم قاتل مع جيوش المسلمين جحافل الردة في موقعة اليمامة التي لقي فيها عدو اللَّه مسيلمة الكذاب حتفه، كما ولاه الصديق قيادة جيش تحت إمرة أخيه يزيد، فكان على مقدمته في فتح صيداء وعرقة وجبيل وبيروت.

(١) البداية والنهاية، مرجع سابق، ٨/ ١١٧.

وافتتح جزيرة قبرص في سنة ٢٧ الهجرية، فكان أول مسلم ركب بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) مجاهداً. وبلغت فتوحات جيوشه المحيط الأطلسي وبلاد السودان، وكثيراً من جزائر اليونان والدردنيل، وحاصر المسلمون في عهده مدينة القسطنطينية براً وبحراً سنة ٤٨هـ[١].

وبرغم أن المسعودي يتشيع لعلي ويغمز من معاوية، فإنه شهد له بالحرص على العدل وقضاء حوائج الناس، وذكر أن عبدالملك بن مروان وغيره هموا أن يتخلقوا بأخلاق معاوية فلم يدركوا حلمه ولا إتقانه للسياسة ولا التأتي للأمور، ولا مداراته للناس على منازلهم ورفقه بهم على طبقاتهم[٢].

وفي وسع الباحث أن يقول في معاوية ما قاله فيه ولده يزيد - على انحرافه-: إنه خير ممن بعده ودون من قبله ولا أزكيه على اللَّه -عز وجل-[٣].

---

(١) المرجع السابق - ٨/ ١١٨، وانظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط٥، دار العلم للملايين/ بيروت، أيار (مايو) ١٩٨٠م، ٧/ ٢٦١، ٢٦٢.

(٢) مروج الذهب، مرجع سابق، ٣/ ٣٩-٥٩.

(٣) البداية والنهاية، مرجع سابق، ٨/ ١٤٣.

غير أن معاوية ليس من الخلفاء الراشدين، فالخلافة الراشدة حسب النصوص النبوية -وهو ما التزمه السلف الصالح- تنتهي بتنازل الحسن بن علي -رضي اللَّه عنهما- لمعاوية عام ٤١ هـ. .

وتلك من أعظم مآثر الحسن -سبط رسول اللَّه-، إذ قدَّم حقن دماء المسلمين على حقه في الخلافة!!.

فهل من الحكمة أن نزايد على السبط الكريم وأحد سيدَيْ شباب أهل الجنة؟!.

إن معاوية دون الحسن من حيث الفضل، فكيف وعلي أفضل من ولديه؟. . غير أننا لا نتجاوز حدود ما أنزل اللَّه فنفتري على عقائد الخلق زوراً وبهتاناً، مع أن تاريخهم اللاحق لخطئهم تضمن خيراً كثيراً؟!. . وعلى افتراض أن ما فعله معاوية قبل أن يبايعه الناس كفر تبعته توبة فهل يعيَّر بماضيه؟!. . -وهذا مجرد افتراض جدلي-.

إن معاوية حكم المسلمين بعد عام الجماعة (٤١هـ) أكثر من ١٩ سنة، فلم يرد اسمه بين المبشرين بالجنة -صراحة ولا

ضمناً!![1] -، وهذا معناه:

■ إما أنه يتورع -وهذا حق- عن الكذب على النبي.

■ وإما أن الأمة ممثلة في علمائها المخلصين لا تسمح بأن يندس في السنة النبوية ما ليس منها..

■ وإما أن الأمرين كليهما حقيقة لا تقبل الجدل.. وهذا هو الثابت فعلاً..

والأمة التي عدَّت معاوية أول ملك في الإسلام، هي التي أسبغت على عمر عبد العزيز لقب خامس الخلفاء الراشدين مع أنه ليس صحابياً وحكمه لم يتجاوز سنتين وبضعة أشهر!!! فهذه شهادة لمعاوية ولعمر وللسلف الصالح من العلماء العاملين.

---

(١) بل إن ابن القيم -رحمه اللَّه- يقول: ومن ذلك أي: الموضوع- ما وضعه بعض جهلة أهل السنة في فضائل معاوية بن أبي سفيان. قال إسحاق بن راهويه:
لا يصح في فضل معاوية بن أبي سفيان عن النبي صلى اللَّه عليه وسلم شيء....».
[ابن قيم الجوزية، المنار المنيف، ط٢، مكتبة المطبوعات الإسلامية/ حلب، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ١١٦.
وانظر: فتح الباري، ٧/ ١٠٤.

الهـوى والهـوى المضاد...

يحرم الإسلام الافتراء على الإنسان -حتى لو كان غير مسلم-، لكنه يأبى -في الوقت ذاته- مسلك التبرير الذي اعتمده بعض الباحثين من باب رد الفعل على الاتهامات بالكفر والنفاق لبني أمية كافة، لأن معالجة الخطأ تتم باتباع الحق لا باللجوء إلى خطأ يقابل الأول.

من ذلك ما فعله محب الدين الخطيب في تعليقاته على كتاب: «العواصم من القواصم» لأبي بكر بن العربي.. فهو يزعم أن الخلافة والمُلْك والإمارة عناوين اصطلاحية[1]، مع أن الحديث الصحيح يفرّق بين الخلافة والملك، الأولى: راشدة على منهج النبوة، ومدتها ثلاثون سنة!!.. والواقع التاريخي يميز بين الأمرين، حتى إن ابن العربي ذاته يصف معاوية بأنه ترك الأفضل وهو أن يجعلها شورى ولا يخص بها أحداً من قرابته فكيف ولداً؟![2].

---

(١) ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد اللَّه، العواصم من القواصم، تحقيق: محب الدين الخطيب، ط٥، الناشر: قصي محب الدين الخطيب، ١٣٩٩هـ، هامش ص ٢٠٧..

(٢) المرجع السابق، ٢٢٢.

والفارق الواضح جداً بين الأمرين، هو الذي استفز الصحابي عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق فجعله يعارض أخذ البيعة ليزيد في حياة معاوية، ويصفها بأنها هرقلية وقيصرية، مع أن عبد الرحمن لم يكن من شيعة علي بل إنه قاتله في موقعة الجمل!!.. وأراد مروان بن الحكم إسكاته فاتهمه أنه هو الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿**والذي قال لوالديه أف لكما**﴾[الأحقاف: ١٧] وردت عليه عائشة -رضي اللَّه عنها- من وراء حجاب تكذِّب ادعاء مروان[١].

ومن عجيب أمر الخطيب ادعاؤه أن معاوية كان يعلم أن فتح باب الشورى في انتخاب من يخلفه سيُحْدِث في الأمة مجزرة لا ترقأ فيها الدماء إلا بفناء كل ذي أهلية في قريش لولاية شيء من أمور هذه الأمة[٢]. فمتى كان تنفيذ شرع اللَّه يؤدي إلى مفسدة -معاذ اللَّه-.. لكنه الهوى ومعالجة الخطأ بالخطأ..

---

(١) صحيح البخاري، التفسير، سورة الأحقاف، باب: «والذي قال لوالديه أف لكما...»، الحديث رقم ٤٨٢٧ [فتح الباري، ٨/ ٥٧٦].

وانظر: جامع الأصول، مرجع سابق، ٢/ ٣٥٢، ٣٥٣.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، المكتبة التجارية الكبرى/ القاهرة، ١٣٧١هـ، ص ٢٠٣.

(٢) العواصم من القواصم، مرجع سابق، ٢١٥.

ويبلغ الخلل مداه عندما يسيغ الخطيب إقدام معاوية على قتل حجْر بن عدي، لأنه حَصَبَ أميره وهو يخطب، بأن لمعاوية عذراً إذا رأى أن حجراً ممن سعى في الأرض فساداً، وبأنه ما من حكومة في الدنيا تعاقب بأقل من ذلك من يحصب أميره[1]!!!.

ونسي محب الدين الخطيب في غمرة حماسه أن الحكومة الإسلامية ليست كأي حكومة، وأن هدر دم المسلم المعصوم ليس أمراً بهذه البساطة.. فهل يعاقب حاصب أميره بالقتل؟!..

نعم.. لولي الأمر أن يعاقبه، ولكن ليس بالقتل.. ولذلك لم يسلم معاوية من ملامة عائشة -أم المؤمنين- على قتله حجراً..

ولعل أفضل رد على هذه الدعوى هو ماقاله شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه اللَّه-: «نحن لا ننزه معاوية ولا من هو أفضل منه عن الذنوب فضلاً عن تنزيههم عن الخطأ في الاجتهاد.»[2].

بيد أن الصحابة لو أذنبوا فإن لهم سوابق مشرفة، والذنوب

---

(١) المرجع السابق، ٢١٢ - ٢١٣.

(٢) منهاج السنة - ٢/ ٢٦١.

-عـمـومـاً- تُغْفَرُ بالتـوبة والحـسنات الماحـيـة والمصـائب المكفرة. . .[1] .

غير أن أبشع ماقاله الخطيب هو زعمه أن منتحلي الأقوال المتضمنة استطالة على معاوية لم يطعنوا في كفاءة يزيد وأهليته، لأنها آخر ما يرتابون فيه[2] !!! . . فكيف تكون كفاءة يزيد فوق مستوى الشك، مع أنهم -حسب قوله- استطالوا على معاوية ذاته؟! . . أو لَمْ يقف نحو من نصف المسلمين في معارضة معاوية نفسه، فلم يسلموا له بالطاعة إلا بعد أن تنازل له الحسن ابن علي -رضي اللَّه عنهما-؟! . .

بل إن ابن عمر -رضي اللَّه عنهما- كان يود الرد على معاوية بالقول: أحق بهذا الأمر منك من قاتلك وأباك على الإسلام، لولا أنه خشي من أن تفرق كلمته صف الأمة وتسفك الدم، وذكر ما أعد اللَّه في الجنان لعباده المتقين فأحجم[3] . .

---

(١) المرجع السابق - ٢/ ٢٣٤ .

(٢) العواصم، مرجع سابق، ٢١٧ .

(٣) العواصم، مرجع سابق، ٢٢٣ - ٢٢٤، جامع الأصول، مرجع سابق، ١٠/ ٩٣، ٩٤ .

رأي السلف في يزيد

قال ابن كثير -رحمه اللَّه-: الناس في يزيد ثلاثة أقسام، قسم يتولون يزيد وهم من النواصب الحاقدين على آل البيت، وقسم يشنعون ويفترون عليه كثيراً كغلاة الشيعة، وطائفة ثالثة لا يحبونه ولا يسبونه، فلم يكن زنديقاً ولكن وقع في زمانه حوادث فظيعة وأمور مستنكرة بشعة شنيعة، مِنْ أَنْكَرِهَا قتل الحسين على غير علم من يزيد، ولعله لم يرض به ولم يسؤه، وذلك من الأمور المنكرة جداً.. ووقعة الحرة كانت من الأمور القبيحة بالمدينة المنورة..[1].

وكان أبو هريرة -رضي اللَّه عنه- يستعيذ باللَّه من أن تدركه سنة ستين الهجرية، وهي السنة التي تولى فيها يزيد[2]!!.

ويكفي فيه أن صالح بن أحمد بن حنبل قال لأبيه: «إن قوماً يقولون: إنهم يحبون يزيد، فقال: يابني وهل يحب يزيد أحد يؤمن باللَّه واليوم الآخر؟ فقال صالح: ياأبت فلماذا لا تلعنه؟

---

(١) البداية والنهاية، مرجع سابق، ٦/ ٢٢٩.

(٢) دفاع عن السنة، مرجع سابق، ١٨٥.

قال: يابني، ومتى رأيت أباك يلعن أحداً؟»[1].

وقال ابن تيمية عن وقعة الحرة التي اقترفها جيش يزيد بالمدينة: «وهذه من كبائره، ولهذا قيل لأحمد: أتكتب الحديث عن يزيد؟ فقال: لا ولا كرامة، أو ليس هو الذي فعل بأهل المدينة ما فعل؟»[2].

أما السيوطي فيلعن قاتل الحسين وعبيد اللَّه بن زياد ويزيد معهما[3].. وينقل عن الذهبي قوله[4]: «ولما فعل يزيد بأهل المدينة مافعل -مع شربه الخمر وإتيانه المنكرات- اشتد عليه الناس، وخرج عليه غير واحد، ولم يبارك اللَّه في عمره...»[5].

---

(١) ابن تيمية، سؤال في يزيد بن معاوية، مرجع سابق، ص٢٧
وانظر: الذهبي، أبو عبد اللَّه محمد بن عثمان، المنتقى من منهاج الاعتدال (مختصر منهاج السنة)، تحقيق: محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، ١٣٧٤هـ، ص ٢٩٥.

(٢) المنتقى من منهاج الاعتدال، ص ٢٩٥، وانظر: سؤال في يزيد، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٣) تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ٢٠٧.

(٤) المرجع السابق، مرجع سابق، ٢٠٩.

(٥) من الكتب الجديرة بالاطلاع عليها لمعرفة مجريات الأحداث في تلك الحقبة وتفسيرها بصورة مقبولة، كتاب الدكتور يوسف العش -الدولة الأموية- الطبعة الثانية- ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م- دار الفكر بدمشق.